تاريخ الفلسفة اليونانية

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السلسلة الفلسفية

تاريخ
الفلسفة اليونانية

تأليف
يوسف كرم
مدرس بكلية الآداب
بالجامعة المصرية

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ — ١٩٣٦

تصدير

لسنا بحاجة إلى كثير شرح لنبين خطر الفلسفة اليونانية فى تاريخ الفكر ، فقد يكفى أن نذكر أنها فلسفة الشرق الأدنى منذ فتوح الإسكندر ، وأنها فلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد فعرفوا نبوغ المغلوبين وأخذوا عنهم أسباب الحضارة المادية والعقلية ومنها الفلسفة . واصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ثم اصطنعها المفكرون المسلمون ، ودخلت المدارس فى الشرق والغرب فكونت العقول وهيمنت على وضع العلوم .

أجل لقد وجد العقل مع الإنسان و بقى هو هو فى جوهره ، واستخدمته الأمم الشرقية فى الماضى السحيق فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ولقنتها لليونان فأغنتهم عن بذل الجهد والوقت فى استكشافها بأنفسهم . وفضلاً عن الفنون والعلوم نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصاً دينية وأفكاراً فى العالم والحياة إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفية ، فقد نظروا فى أسمى المسائل مثل الوجود والتغير والخير والشر والأصل والمصير ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك . ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى ، بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها أو أصلاً قد تكون نبتت منه .

غير أنا إذا لحظنا صيغة القول ومنهج البحث عند الشرقيين لم ندعُ هذا

الضرب من المعرفة والتفكير علماً وفلسفة ، بل دعوناه ما قبل العلم والفلسفة فإن علومهم جميعاً من حساب وهندسة وفلك وغيرها لم تكن تعدو ملاحظات تجريبية أدت إليها حاجات عملية وفيها تعثر وتردد يدلان على أنه لم يكن لدى أصحابها أية فكرة عامة عن المبادئ والعلل والبرهان . هذا رأى العلماء المحدثين[1] بل هذا رأى عالمنا الكبير البيرونى[2] الذى وعى العلم القديم كله وخبر الهند ووقف على « مقولاتها » فهو يقول : « وكانوا (أى الهنود) يعترفون لليونانيين بأن ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم منه ... كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتى فيما بينهم وقصورى عما هم فيه من مواضعاتهم ، فلما اهتديت قليلاً لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير إلى شىء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية فى الحسابات فانثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ... فكادوا ينسبوننى إلى السحر ... أقول إن اليونانيين ... كانوا على مثل ما عليه الهنود من العقيدة ... (ولكنهم) فازوا بالفلاسفة ... نقحوا لهم الأصول ... ولم يك للهند أمثالهم ممن يهذب العلوم فلا تكاد تجد لذلك لهم خاص كلام إلا فى غاية الاضطراب وسوء النظام ... إنى ما أشبه ما فى كتبهم من الحساب ونوع التعاليم إلا بصدف مخلوط بخزف ... والجنسان عندهم سيان إذ لا مثال لهم لمعارج البرهان » .

---

(١) « الكتب الهندية والبهلوية مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد وشرح استعمال الجداول خالية عن البراهين وبيان العلل » الأستاذ نلينو فى كتابه « علم الفلك ، تاريخه عند العرب » ص ٢١٤ طبع روما ١٩١١ — وانظر التفصيل الوافى عند : A. Rev, La science orientale avant les Grecs والمناقشة التى دارت معه فى الجمعية الفرنسية للفلسفة فى : Bulletin de la Société française de philosophie, janvier fêvrier 1931.

(٢) أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٥١ — ٤٤٠ هـ = ٩٦٢ — ١٠٤٨ م) فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » ص ١٢ — ١٣ طبع ليبسيك ١٩٢٥

أما الفلسفة فالشرقيون فيها متفاوتون : فقد يمكن القول عن البابليين والمصريين والعبرانيين أنهم جهلوا الفلسفة بالرغم مما بلغ إليه علماؤهم من ثقافة عالية ولم يحصلوا فيما يلوح سوى بضعة معارف عامة جدا ومختلطة بالدين فى الألوهية والنفس والعالم الآخر عالجوها بالبداهة والخيال دون الاستدلال . وبالعكس قد زاول الفرس والهنود والصينيون النظر العقلى المجرد إلى حد بعيد ، ولكنهم قصروا مهمة هذا النظر على تمحيص الدين و إصلاحه ولم يوفقوا إلا بعض التوفيق فى تبين ماهية الفلسفة و إقامتها علماً مستقلاً . كان قصدهم الأول النجاة من الشر فلم يتخذوا العلم غاية لذاته بل وسيلة لهذه النجاة ، وأرادوا أن يجاوزوا العقل إلى نوع من الكشف يستغنى عن التحليل والتفصيل و يتصل بموضوعه اتصالاً مباشراً أو يفنى فيه . فكأنه كان مكتوباً لليونان أن يعبروا فى وقت من الأوقات الهوة الفاصلة بين التجربة والعلم بمعناه الصحيح أى معرفة الماهية والعلة بالحد والبرهان ، و يضعوا الفلسفة علماً كاملاً قائماً برأسه و يقنعوا بها لا يتطلعون إلى كشف أو إشراق ، و إن تطلعوا فهموه كشفاً عقليا إلا أن يتأثر بعضهم بالشرق فى أواخر عهدهم بالتفلسف فيعدل عن العقل إلى الذوق كما وقع للأفلاطونية الجديدة . فى هذه الحدود يصح القول أن الشرق لم يعلم اليونان أى لم يلقنهم مذهباً أو منهجاً ولكنه حفزهم إلى التفكير بما أدى إليهم من مواد جمعها أثناء قرون طويلة فقاموا يعالجونها على نحو علمى . لم يفلحوا دفعة واحدة — وهذا الكتاب تاريخ محاولاتهم — ولكنهم ساروا فى طريقهم وأعملوا العقل فى نشاط وجرأة عجيبين فكانوا أساتذة الإنسانية .

تنبيهات

١ — قسمنا الكتاب إلى أبواب والباب إلى فصول والفصل إلى أعداد والعدد إلى فقرات وجعلنا الأعداد مسلسلة ورقمنا الفقرات فى كل عدد بالأحرف الأبجدية ، فاذا أردنا إحالة القارئ إلى موضع من الكتاب ذكرنا بين قوسين العدد والفقرة ، مثلا (٣٢ — ب) .

٢ — رسمنا الأعلام اليونانية كما وردت فى الكتب العربية أو على نسقها إلا القليل منها اختصاراً أو محافظة على الأصل . أما الاختصار فبحذف حرف السين الأخير وهو فى اليونانية علامة من علامات « الاعراب » وليس جزءاً من الاسم وإثباته غير مطرد عند العرب بدليل قولهم سقراط وأفلاطون مثلا . وأما المحافظة على الأصل فباستبقاء حرف p باء بدل قلبه فاء وإنما حدث هذا القلب عن طريق الترجمات السريانية من اليونانية ، وفى الخط السريانى يرمز بحرف واحد إلى حرفى باء وفاء فتعذر على الناقلين من السريانية إلى العربية تمييز ذينك الحرفين ، أما العرب أنفسهم فلم يصطلحوا أبداً على وضع الفاء مكان p اليونانية ، وإنما أشاروا إليها بالباء (نلينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب ص ٢٢٦) . وعلى ذلك فقد كتبنا فيثاغورس وأفلاطون وفوروفوريوس . . . لشهرتها ولكنا قلنا بارمنيدس وأنبادوقليس وأبيقوروس . . .

٣ — جرت العادة فى الاحالة إلى أقوال أفلاطون باعتماد طبعة Henri Estienne (ليون ١٥٧٨) وصفحاتها مقسمة خمسة أقسام يدل عليها بالأحرف a b c d e لتسهيل الرجوع إلى الموضع المقصود . ومعظم الطبعات الجزئية والترجمات الحديثة تشير فى هوامشها إلى هاته الصفحات وأقسامها فرأينا أن نتبع هذا الاصطلاح مع استبدال الأحرف الأبجدية ا ب ج د ه بالأحرف الافرنجية فنكتب مثلاً : الجمهورية ص ٤٤٠ (ب) فى مقابل : Rep. 440 b

٤ — أما أقوال أرسطو فيحال فيها إلى طبعة أكاديمية برلين وصفحاتها مقسمة إلى عمودين يدل عليهما بحرفى a و b وفى كل عامود السطور مرقومة فيذكر مثلا De Anima 429 b 10-24 ونكتب نحن : كتاب النفس ص ٤٢٩ ع ب س ١٠ — ٢٤ أى صفحة ٤٢٩ عامود ب سطر ١٠ — ٢٤ . أو نكتفى بذكر اسم الكتاب ورقم المقالة والفصل ، فان كتبه مقسمة إلى مقالات وهذه إلى فصول .

مقدمة

الفكر اليونانى قبل الفلسفة

١ — العالم اليونانى :

١ — كان اليونان يعتقدون أنهم أصليون فى جزيرتهم ؛ والحقيقة أنهم جاءوها من آسيا . فهم آريون أو هنديون أوربيون ، وكانوا يدعون سكان بلادهم الأولين بالبلاجيين ويدعون أنفسهم بالهلانيين ، وكانوا أربع قبائل كبرى مختلفة خَلقاً ولهجة : الأيوليون والدوريون فى الشمال ، والأخيون والأيونيون فى بلوبونيسيا (المورة الآن) ، ولكن هذا التقسيم اضطرب فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ؛ إذ أغار أهل تساليا على شمال اليونان فهاجر الأيوليون إلى آسيا واحتلوا لسبوس أكبر جزر الشاطئ الأسيوى ، واحتلوا هذا الشاطئ من الدردنيل إلى خليج أزمير فسمّيت هذه المنطقة أيولية . أما الدوريون فهبطوا المورة وأخضعوا الأخيين ، وتهدّدوا الأيونيين ؛ فجلا هؤلاء فريق منهم صعد إلى الأتيك فى شمال المورة إلى الشرق وفريق أبحر إلى آسيا فاحتل جزيرتى خيوس وساموس والشاطئ الأسيوى من أزمير إلى نهر ميائدر ؛ فعرفت هذه المنطقة باسم أيونية وقامت فيها مدن شهيرة أهمها أزمير (اغتصبوها من الأيوليين) وأفسوس وملطية ، ولم يقتصر الدوريون على فتح المورة ؛ بل استعمروا الجزر الممتدة من

قيثارة فى جنوب المورة إلى رودس عند الشاطئ الأسيوى وقسما من هذا الشاطئ إلى جنوب أيونية ، وسمى هذا القسم بالدورية .

ب — وفى القرنين الثامن والسابع نشبت حروب أهلية بين الشعب والأشراف انتهت فى أثينا وأسبرطة بديموقراطية مقيدة نظمها فى الأولى دستور سولون ، وفى الثانية دستور ليقورغ . أما فى غيرهما من المدن فكانت الحظوظ متباينة واضطر المغلوبون للهجرة ، ولكنهم لم يذهبوا شرقاً فى هذه المرة بل قصدوا إلى مناطق ثلاث : فمنهم من صعد إلى الشمال فحل شواطئ تراقية وخلقيدية ، أى الروملى الحالية ، ومنهم من سافر إلى الغرب فاستعمر إيطاليا الجنوبية ، (وقد سماها الرومان لذلك باليونان الكبرى) وصقلية ، والأندلس ، وجنوب فرنسا ، حيث أنشأوا مرسيليا ، ومنهم من يمم الجنوب فنزل قبرس ومصر وشمال إفريقيا ، وفى هذا العصر بنى بعض الدوريين مدينتين على ضفتى البوسفور : الواحدة على الضفة الشرقية هى : خلقيدونية (أشقودرة) ، والأخرى على الضفة الغربية هى : بيزنطية (استانبول) .

ح — وكانت هذه المدن والمستعمرات المنتشرة فى البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب مستقلة فى السياسة والإدارة ، ولكنها كانت تؤلف عالماً واحداً هو العالم اليونانى تجمع بين أجزائه وحدة الجنس واللغة والدين ، فكانوا كلهم يعبدون زوس ويحجون إلى معبده الأكبر فى أولمبية بالمورة ، كما كانوا يأتون دلف فى سفح جبل برناس يستنزلون وحى أبولون ويبعثون بالمندوبين فى الأعياد الكبرى يحملونهم التقدمات والقرابين ، وكانت تلك الأعياد أزمنة حرماً توقف فيها الحروب ، وتقام الألعاب الرياضية وأسواق الأدب والفن ، فينشد الشعراء ، ويغنى المغنون ، ويعرض المصورون والمثالون آياتهم ، والمهاجرون يشاركون فى كل ذلك فكان هذا الاتصال المستمر بالوطن الأول ، وتلاقى الجميع فى آجال معينة وتبادل

الأفكار والسلع عاملاً قويا فى إنضاج الحضارة اليونانية على النحو الذى جعلها فذة فى التاريخ ، ويرجع الفضل الأكبر فيها للمستعمرين بالإجمال ، وللأيونيين منهم بنوع خاص ؛ فإن مخالطتهم للأمم الأجنبية قوّت نسلهم ، ووسعت مداركهم وحررت عقولهم ، وكان الأيونيون أنجب اليونان ، جاوروا الأمم الشرقية فانتفعوا بعلومها واصطنعوا وسائل مدنيتها ؛ فكانت بلادهم مهد الثقافة اليونانية فيها نظمت القصائد الهوميرية ؛ ومنها خرج العلم والفلسفة .

٢ — هوميروس :

١ — كان المعتقد إلى سبعين سنة خلت أن شعر هوميروس يمثل طفولة الفكر اليونانى ومن ثمت طفولة الإنسانية على تقدير أن تصور هوميروس من السذاجة بحيث يصح اعتباره أول مرحلة من مراحل العقل يحاول فهم الطبيعة وفهم نفسه ، ولكن العلماء كشفوا سنة ١٨٧١ ، وما زالوا يكشفون عن آثار فى شبه الجزيرة وفى بعض الجزر وعلى الخصوص كريت عرفوا منها أن حضارة مادية عظيمة أزهرت فى اليونان قبل هوميروس بثمانية قرون هى المذكورة فى أساطيرهم وفى وقائع طروادة إلى أن دمرها الدوريون فى إغارتهم المشهورة حوالى سنة ١١٠٠ وأيقنوا أن الحياة التى يصفها الشعر الهوميرى بما فيها من غنى وقوة وفن وترف وليدة تطور قديم ، على أن أقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليونانى الإلياذة والأوذيسيه وهما تنسبان لهوميروس منذ زمن بعيد ، إلا أن الشك قديم فى حقيقته وفى نسبة القصتين جميعاً لشاعر واحد ، ولقد أثبت النقاد المتأخرون أن كليهما مجموعة قصائد لشعراء مختلفين فى موضوع واحد مما يحدو للظن أن النسبة أتت من أن هوميروس كان واحداً من أولئك الشعراء وكان أشهرهم أو أنه كان أحدثهم عهداً حفظها وأنشدها فنسبت إليه باعتباره الجامع لها فإن اسمه

يعنى « المنسّق » . ويرد النقاد الإلياذة إلى القرن التاسع والأوذيسيه إلى آخر هذا القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن . فإذا حكمنا على هذا العصر بالقصائد الهوميرية وضعناه فى مرتبة دنيئة من مراتب الفكر لما نجد فيها من سذاجة فى تصور الطبيعة والإنسان ومن إسراف فى تأنيس الآلهة واستهتار بالأخلاق ليس له مثيل . . . . . .

ب — أما الطبيعة فهى عند هوميروس حية مريدة وقد يكون هذا متابعة للتصور المعبر عنه بالبدائى كما يريد بعض المؤلفين ، ولكنه على أى حال مألوف فى الشعر إلى أيامنا ، فلا غرابة فى قوله مثلا إن نهر زونتوس استشاط غضباً لأن أخيل ملأه بالجثث — ولا فى تشخيصه الليل والظلمات والموت والنوم والحب والشهوة والعماية — بل لا غرابة فى تأليهه الأرض ، وقوله إنها ولدت الجبال الشاهقة والسماء المزدانة بالكواكب ، ثم تزوجت من السماء المحيطة بها من كل جانب فولدت أقيانوس والأنهار وأن أقيانوس المصدر الأول للأشياء . فعندنا أن الأساطير القديمة فى جملتها رموز تخفى وراءها مقاصد علمية إذا ترجمناها إلى لغتنا المعهودة بدت واضحة مقبولة . وأخطر من ذلك تصور الآلهة والمبادئ الخلقية ، فالآلهة فى قمة الأولمب يؤلفون حكومة ملكية على رأسها زوس ويليه من بعده سائر الآلهة والآلهات وكلهم فى صورة بشرية ، إلا أن سائلا عجيباً يجرى فى عروقهم فيكفل لهم الخلود ، وهم أقوى من الأبطال وأسرع حركة ، يظهرون للناس أو يختفون كما يشاءون ، يسكنون قصوراً فى السماء فخمة يقضون فيها حياة ناعمة فى ربيع مقيم يأكلون ويشربون ويتزاوجون ، تجرحهم السهام والرماح فيألمون وينتحبون . وهم حادثون ، وجدوا فى الزمان ، وما يزالون خاضعين لتعاقب الأيام ، وهم على مثل هذا النقص من الناحية الخلقية لهم شهواتهم وعصبياتهم ، يتفرقون أحزاباً ويتدخلون فى منازعات البشر ، يؤيد بعضهم اليونان ، ويناصر

البعض الآخر أهل طروادة ، يتشاتمون و يتضاربون ، يخونون و يغدرون ، لا يرعون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه ، و يذهبون فى رعايتهم إلى حد أن يهبوا مختاريهم التوفيق فى الخديعة أو المهارة فى السرقة ، لا يحفلون بعدل أو بظلم إلا فيما ندر . ولا يعتد كثيراً بما ورد فى الأوذيسيه من إشارات خلقية ومن ذكر عدالة تزوس فإن فيها أيضاً تسليما بالقدر يقضى به الآلهة على البشر دون اعتبار لقيمة أفعالهم بل إن القدر يسخر من الفضيلة و يعبث بالإرادة الصالحة . وأما الإنسان عند هوميروس ومعاصريه من اليونان فمركب من نفس وجسد والجسد مكون من ماء وتراب ينحل إليهما بعد الموت ، والنفس هواء لطيف متجد بالجسد متشكل بشكله ينطلق بالموت شبحاً دقيقاً لا يحسه الأحياء فينزل إلى مملكة الأموات فى جوف الأرض وقد احتفظ بالشعور وفقد القدرة على العمل ، فهو يألم لذلك و يقضى هناك حياة باهتة تافهة خير منها بألف مرة الحياة على وجه الأرض فى ضوء النهار مهما تبلغ من البساطة والفقر . وليس فى هذا العالم الآخر ثواب ولا عقاب إلا فى النادر يوزعهما الآلهة بمثل ما يوزعون فى الحياة الفانية من عدل معكوس فيحابون أصدقاءهم و ينكلون بأعدائهم ، وليست صداقتهم قائمة على الخير أو عداوتهم مسببة عن الشر .

حـ — فنحن هنا فى أحط دركات التشبيه و بإزاء أوقح أشكال الاستهتار نرى العاطفة الدينية ضعيفة إلى حد العدم ، والمبادئ الخلقية مقلوبة رأساً على عقب . ونظن السبب راجعاً إلى أن هذا الشعر كان ينشد فى بلاط أمراء أيونية ، وكان هؤلاء على جانب كبير من الغنى والترف ، فلم يكن الشعراء يتغنون بغير ما يروقهم ، فيصورون الحياة سهلة جميلة ، والشهوة غلابة لا يقفها وازع ، والقوة ممدوحة لذاتها لا يحدها حق . غير أن الأوذيسيه أكثر تقديراً للفضائل ، فهى بالإجمال تمجد الرجل الحكيم الشجاع الصبور ، والزوجة الوفية ، والابن البار ،

والخادم الأمين . ولما كان اليونان قد تدارسوا هذا الشعر جيلاً بعد جيل ، فقد بقى التأنيس عندهم وتأليه السماوات بما فيها والإيمان بالقدر الأعمى أصولاً للدين وتغذى ميلهم الطبيعى للتمتع بالحياة بما وجدوه فى هذا الشعر من الصور والأمثال . وسوف لا يفى الفلاسفة عن معارضته حتى تبلغ هذه المعارضة أشدها عند أفلاطون .

٣ — هزيود :

ا — ولم يعدم الضمير الإنسانى فى ذلك العصر صوتاً يجهر بأحكامه المقدسة ويتكلم عن الدين والأخلاق فى جد ووقار — هو صوت هزيود أقدم شاعر تعليمى فى الغرب عمّر فى القرن الثامن نشأ فى بوبثيا فلاحاً بعيداً عن بهرج الحضارة ، ونظم للفلاحين ديواناً أسماه : « الأعمال والأيام » ملأه حكماً وأمثالاً تسودها فكرة عامة هى فكرة العدالة ، فتراه يقول : « السمك والوحش والطير يفترس بعضها بعضاً لأن العدالة معدومة بينها . أما الناس فقد منحهم تزوس العدالة وهى خير وأبقى » وأيضاً : « إن للملوك آكلى الهدايا عدالة ملتوية . أما تزوس فأحكامه قويمة » ويقول : « من يضر الغير يجلب الشر على نفسه . عين تزوس تبصر كل شىء . إذا كان الذى يربح الدعوى هو الأكثر طلاحاً فمن الضار أن يكون الإنسان صالحاً ، ولكنى لا أعتقد أن يكون تزوس الحكيم جدا قد صنع مثل هذا . إن ساعة العقاب آتية لا محالة ، وإن تزوس يهب القوة ويذل الأقوياء يضع الذى يطلب الظهور ويرفع الذى يقعد فى الخفاء » وغير ذلك كثير خلاصته أن الحق فوق القوة والإنسانية فوق الحيوانية .

ب — ويذكر لهزيود ديوان آخر فى « أصل الآلهة » يرى بعض العلماء أنه منحول وأنه متأخر عن عهده بقرن أو يزيد ، وهو على الطريقة التعليمية حاول فيه الشاعر أن يؤلف مجموعة معقولة من الأساطير والمعارف القديمة . افتتحه

بالضراعة إلى إلهات الشعر أن توحى إليه ما كان وماهو كائن وما سيكون ، وأن تعلن قوانين الأشياء جميعاً ، ثم مضى يسلسل الأشياء والآلهة فى ترتيب يدل على أنه راعى ما بينها من علاقات العلية ، وتدرج إلى النظام ومبدأه أن الأصغر يخرج من الأكبر ، فأخرج الجبال من الأرض والأنهار من أقيانوس وهكذا إلى آلهة الأولمب وهم آخر المواليد على اعتبار أن القوى الطبيعية سابقة على الآلهة المكلفين بتدبيرها[1] . فهذا الديوان يعد أول محاولة فى العلم الطبيعى بالرغم من أن نصيب المخيلة فيه أكبر من نصيب العقل ، وأن الشاعر يروى ولا يفسر ، فإن القصص الرمزى كان مألوفاً عند الأقدمين . ونبغ غير واحد من هؤلاء الشعراء والكتّاب الذين يدعوهم أرسطو باللاهوتيين لمعالجتهم العلم فى صورة الأسطورة .

٤ — الحكماء :

ا — ولما كان القرن السابع اشتدت الخصومات السياسية بين اليونان ، وقويت حركة التوسع الاستعمارى والتنظيم الاجتماعى ، ونبغ فيهم رجال معدودون أشهرهم : « الحكماء السبعة » على ما هو متواتر ، ولو أن القدماء اختلفوا فى عددهم وأسمائهم ، ومنهم على كل حال سولون المشرع المعروف (٦٤٠ — ٥٥٨) وطاليس أول الفلاسفة . هؤلاء الحكماء كان مقصدهم الأكبر إصلاح النظم والأخلاق ، وقد ذكر أفلاطون بعض حكمهم فإذا هى عبر عملية استخرجوها من مجاربهم الشخصية وصاغوها فى عبارات موجزة ذهبت أمثالاً . قال : « واجتمعوا فى دلف وأرادوا أن يقدموا لأبولون فى هيكله بواكير حكمتهم فاختصوه بالآيات التى يرددها الناس الآن مثل : « اعرف نفسك » و « لا تسرف » و « الصلاح عسير »[2] ، فكانوا مصلحين ومشرعين ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمة . وشاع

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعة م ١٤ ف ٤ ص ٩١ ١٠ ع ب س ٤ وما بعده .

(٢) فى محاورته « بروتاغوراس » ص ٣٤٣ — ١ ب .

هذا النوع من الحكمة وظهرت « أمثال ايسوب » وهو شخص أسطورى يرجع عهده إلى النصف الثانى من القرن السابع . ثم ظهر الشعر الحكمى فيه أمثال منظومة ونقد لأخلاق الناس . ثم خطى العقل خطوة حاسمة وانتقل إلى العلم والفلسفة .

٥ — الفلسفة اليونانية وأدوارها :

مرت الفلسفة اليونانية بثلاثة أدوار : دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول

والدور الأول فيه وقتان : الوقت المسمى بما قبل سقراط وهو يمتاز باتحاد وثيق بين العلم الطبيعى والفلسفة ، ووقت السوفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكر إلى مسائل المعرفة والأخلاق .

والدور الثانى يملأه أفلاطون وأرسطو . اشتغل أفلاطون بالمسائل الفلسفية كلها ، وجهد نفسه فى تمحيصها ، ولكنه مزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة ، حتى إذا ما جاء أرسطو عالجها بالعقل الصرف ، ووفق إلى وضعها الوضع النهائى .

والدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود إلى الأخلاق والتأثر بالشرق ، والميل إلى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية .

والكتاب كله شرح لهذا الإيجاز . ونظراً لجلالة قدر أفلاطون وأرسطو وعظم أثرهما خصصنا لكل منهما باباً فجاء الكتاب فى أربعة أبواب .

الباب الاول

نشأة العلم والفلسفة

٦ — تمهيـــــــد :

١ — قلنا إن الدور الأول ينقسم إلى وقتين : فى الوقت الأول نرى ثلاثة اتجاهات متعاصرة تمثل الوجهات الثلاث التى يمكن تبينها فى الوجود ، ويؤلف مجموعها الفلسفة الموضوعية : وهى الوجهة الطبيعية ، والوجهة الرياضية ، والوجهة الميتافيزيقية . فإن الفكر يتجه أولاً نحو الخارج ويطلب حقيقة الأشياء ؛ فإما أن يستوقفه التغير وهو بالفعل أعم وأخطر ظاهرة فى الطبيعة سواء أكان عرضيا وهو انقلاب الشىء من حال إلى حال أو جوهريا ، وهو تحوّل الشىء إلى شىء آخر كتحول الغذاء إلى جسم الحى والخشب إلى الرماد — فيدرك أن الأجسام المختلفة مصنوعة من مادة أولى هى محل التغيرات ؛ فيبحث عن هذه المادة التى تتكوّن منها الأجسام ثم تعود إليها وتبقى هى هى تحت التغيرات المتنوعة المتعاقبة ، وإما أن يعنى بما فى تركيب الأجسام من نظام وفى أفعالها من اطراد ، ويعلم أن النظام فى العدد فيتصوّر الأشياء تصوّراً رياضيا ، وإما أن يستعصى عليه تفسير التغير فينكره ويقول بالوجود الثابت — فالوجهة الأولى أخذ بها طاليس ، وأنكسيمندريس ، وأنكسيمانس ، وهرقليطس : نشأ الثلاثة الأول فى ملطية ، والرابع فى أفسوس ، وكانتا فى مقدمة المدن الأيونية عمراناً وثقافة ، ولكن الفرس أغاروا على أيونية وأخضعوها منذ سنة ٥٤٦ ، ودمروا ملطية سنة ٤٩٤ فانتقلت

الحياة العقلية إلى إيطاليا الجنوبية وصقلية ؛ حيث نبغ فيثاغورس ، وهو صاحب الوجهة الرياضية ، وظهرت المدرسة الإيلية القائلة بالوجود الثابت . ثم نشأ فلاسفة حاولوا التوفيق بين الوجهات الثلاث هم : أنبادوقليس ، وديموقريطس ، وأنكساغورس .

ب — وفى الوقت الثانى اجتاز العقل اليونانى أزمة عصبية ، هى أزمة السوفسطائية ؛ كان مركزها أثينا بعد حروب اليونان والفرس فى أيام بركليس المتوفى سنة ٤٢٩ . تشكك السوفسطائيون فى العقل وفى مبادئ الأخلاق ، وحاربهم سقراط والتف حوله تلاميذ ؛ فخاضوا كلهم مسائل منطقية وخلقية كونت مواد الفلسفة الذاتية ، فكان هذا التطور مطابقاً للتطور الطبيعى فى الفرد ينظر أولاً إلى الخارج ، ولا يتجه إلى الداخل إلاّ فيما بعد — وقد ضاعت كتب رجال هذا الدور جميعاً ونحن نعرفهم مما يذكره عنهم أفلاطون وأرسطو ، ومن أخبار دوّنت فى عهد متأخر ، ومن عبارات لهم جمعت من مختلف الكتاب القدماء ، وإليك جدولاً بأسمائهم وتواريخهم (وكلها تقريبية) :

طاليس ٦٢٤ — ٥٤٦			
أنكسيمندريس ٦١٠ — ٥٤٧			
أنكسيانس ٥٨٨ — ٥٢٤	فيثاغورس ٥٨٢ — ٤٩٧		
	أكسانوفان ٥٧٠ — ؟		
هرقليطس ٥٤٠ — ٤٧٥	بارمنيدس ٥٤٠ — ؟	أنكساغورس ٥٠٠ — ٤٢٨	
	زينون ٤٨٧ — ؟	أنبا دوقليس ٤٩٣ — ٤٣٣ ؟	
		ديموقريطس ٤٧٠ — ٣٦١	
			بروتاغوراس ٤٨٠ — ٤١٠
			غورغياس ؟ — ٣٧٥
			سقراط ٤٦٩ — ٣٩٩
	ملیسوس ٤٤٠ — ؟		

الفصل الأول

الطبيعيون الأولون

٧ — طاليس :

ا — هو أحد الحكماء السبعة انفرد بالعناية بالعلم وكانوا يعنون بالسياسة والأخلاق ، جال أنحاء الشرق وتبحر فى العلوم ، ومما يذكر عنه أنه عمل كمهندس حربى فى خدمة قارون (آخر ملوك ليديا فى آسيا الصغرى) ، وبرهن على أن الزوايا المرسومة فى نصف الدائرة فهى قائمة ، وكان يحسب من فوق برج أبعاد السفن فى البحر ، وأنبأ بكسوف الشمس الكلى الذى وقع فى ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ ووضع تقويماً للملاحين من أهل وطنه ضمنه إرشادات فلكية وجوية منها : أن الدب الأصغر أدق الكواكب دلالة على الشمال ، ولما جاء مصر أخذ علم المساحة وشغل بمسألة فيضان النيل ، ودل أساتذته المصريين على طريقة لقياس ارتفاع الأهرام وكانوا قد تعبوا فى البحث عنها فنبههم إلى أنه فى الوقت الذى يكون فيه ظل الشىء مساوياً لمقداره الحقيقى ، فإن طول ظل الأهرام هو مقدار ارتفاعها وأن النسبة تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاع الشىء فى أى وقت من النهار .

ب — أما أثره فى الفلسفة فهو أنه وضع المسألة الطبيعية وضعاً نظريا بعد محاولات الشعراء واللاهوتيين فشق للفلسفة طريقها فبدأت باسمه . قال إن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد الذى تتكون منه الأشياء وكان هذا القول مألوفاً عند الأقدمين وقد مرت بنا عبارة هوميروس أن أقيانوس المصدر الأول للأشياء ، ومن قبل قالت أسطورة بابلية : « فى البدء قبل أن تسمى السماء وأن